

## الجمعيات التعاونية

### تاريخ نشأتها وتطورها مع الزمن

غريزة التعاون قديمة تأسلت في الانسان منذ عصوره الأولى، وقد دلت الأبحاث التاريخية على أنه أحس الرغبة في التعاون منذ أن درج على وجه الأرض، دفعته الى ذلك رغبته في إيجاد من يساعده على إعداد ما كله ومسكنه ثم الدفاع عن نفسه، فلما تقدم به الزمن، وبدأ يخطو نحو الحضارة شيئا فشيئا، أخذت الدوافع تكثر شيئا فشيئا تبعاً لازدياد حاجاته ومطالبه .

ومما يدل على قدم هذه الغريزة وتواصلها في الإنسان ما عرف عن قيام الشركات التعاونية عند قدماء المصريين والكلدانيين وأهل بابل وأشور، وهي أم يرجع تاريخها الى آلاف السنين . وقد جاء ذكر الجمعيات التعاونية في قول الملك " رمسيس الثالث " الذي عثر عليه الأستاذ " ريفليو " في أوراق البردي وترجمه الى العربية الدكتور يحيى أحمد الدرديري . قال الملك :

" كنت أعول الضعفاء والمساكين بوساطة حوانيت أى شركات التعاون ، وجعلت الرخاء يعم الناس جميعا . وكان الرخاء الى هذا الحين منووك الحال . وكانت الأرض (في عهدي) ملامى بالخيرات من المزروعات وغيرها . تحت حكمى عملت الخير ابتغاء وجه الله ومصاحبة الأمة لا أريد على ذلك من أحد جزاء ولا شكورا ، وعلى هذا السبيل قضيت حكمى " . .

وكان معنى التعاون الذى قامت به تلك الشركات — كما يتضح لنا من الفقرات السابقة — تقديم المساعدة اللازمة للحاجين، والإحسان للضعفاء . يقول الدكتور الدرديري في كتابه التعاون "فاذا تبعنا ما عثر عليه وترجم من أوراق البردي وجدنا معنى التعاون في كثير من أقوال الأفراد والزعماء، التعاون الذى أساسه بذل المعونة والاحسان للضعفاء، وحمايتهم من الأقوياء لتوطيد دعائم النظام والعدل من جهة، وتبادل المعونة والفائدة من سبيل اشتراك مجهودات العمال أنفسهم من جهة أخرى " . . غير أن هذا المعنى يختلف تماما عن معنى التعاون الحديث الذى تقوم به الجمعيات التعاونية المنتشرة في كل قطر، فذاك يذهب الى الإحسان والعطف، وهذا يذهب الى وجوب اعتماد الفرد على نفسه في محاربة إسعاد حاله .

ولكن مالنا نذهب بعيدا ، ونحاول التدليل على قدم غريزة التعاون وتأصلها في الإنسان بما جاء في أوراق البردي ، وبما عثر عليه علماء الآثار هنا وهناك وهذه الأديان السماوية بين أيدينا تجمع على أن التعاون فضيلة بل وسيلة إلى سعادة البشر وتقدم الانسانية . لقد كان الإنسان يحس حاجته إلى التعاون من تلقاء نفسه فيسعى إليه دون أن يفكر فيه ، ولم يكن خياله اذذاك يتسع لأكثر من الحصول على حاجاته الوقتية ، ولم يكن تفكيره يتسع لأكثر من البيئة الضيقة التي تحيط به ، فلما جاءت الأديان لخدمة الانسانية عامة ولتهذيب نفوس الافراد ورفع مستواهم ، وتحسين أحوالهم ، وإقامة صرح الحياة على أسس قوية وضع للإنسان أن الغريزة التي تدفعه إلى الالتجاء إلى غيره على قرب منه أو بعد عنه وتدفعه إلى طلب العون كلما أزمته أزمة أو نقلت عليه كارثة ، أو رغب في تنفيذ أمر من الأمور التي لا يمكنه القيام بها وحده — بينت له الأديان أن هذه الغريزة انما هي غريزة التعاون ، وأنها وسيلة إلى ما يرجوه من خير ثم دعت الناس إلى أن يتعاونوا لتخفيف أعبائهم ، وليكونوا أمة صالحة .

قال تعالى في كتابه العزيز : ”وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان“  
وليس قوله تعالى ” ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين “ إلا دعوة منه جللت قدرته للتمسك بأهداب الوحدة ، وترغيبا في التعاون حتى لا يصيب الفشل عباده ، وأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله ” الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه “ وقوله ” خير الناس أنفعهم للناس “

ولم يكن التعاون قديما في هذا المظهر الذي نراه عليه اليوم ، فقد كان الإنسان يلجأ إليه من أقرب الطرق وبأبسط الوسائل ، ولا يمكن أن تخرج الحالات التي كان الناس يتعاونون فيها عن حالات التعاون في هذا الوقت ، فإما هذه الحالات فهي :

( ١ ) تعاون الفرد مع الفرد

( ٢ ) تعاون الفرد مع الجماعة

( ٣ ) تعاون الجماعة مع الجماعة

غير أنه لم تكن هناك خطط تميز حدود هذا التعاون وأغراضه ونواحيه ، لأنه كان ماونا غير مةصود ، بمعنى أن الناس جميعا كانوا يتعاونون من حيث لا يشعرون ، أو من غير أن يتعمدوا ذلك ، ولا يزال هذا التعاون موجودا حتى الآن ، بل لا يمكن ان تستغنى عنه البشرية مهما يكن الأمر . ولنضرب لذلك مثلا بسيطا برغيف الخبز ، فكم من الأيدي ساعدت على انجازه اذا تصورنا أنه كان زرعا ثم حبا ثم دقيقا ثم عجينة وقس على ذلك كل شيء في تناول يد الانسان .

ولما كانت لهذا التعاون غير المقصود عيوب لا تزال تعرض العالم لكثير من ويلاتهما، وتعرض الحياة الاقتصادية لكثير من المفاجآت فقد فكر رجال الإصلاح في إيجاد نظام آخر من التعاون المنظم الذي لا يقوم على استغلال فئة لفئة ، ويكون كفيلا بسد النقص وإصلاح العيوب .

وإذا كان ذكر الشركات التعاونية قد جاء في المخلفات القديمة فإن هذه المخلفات لم تذكر لنا شيئا عن خططها وأغراضها ، ولذلك لا نستطيع أن نعطي في هذا المقام بيانا واضحا أو نتحدث بشيء عنها وعن أعمالها .

أما تاريخ الجمعيات الحديثة أو بمعنى آخر الجمعيات التعاونية المنظمة المحددة أعمالها بقوانين وأنظمة فيرجع الى القرن السابع، وهو الوقت الذي بدأت فيه "الجمعيات الاختيارية" (Voluntary Associations) وقد ظهرت هذه الجمعيات في إنجلترا لأول مرة ، وكان الشعب الإنجليزي أول الشعوب التي استفادت من وجودها أدبيا وماديا، وفي ذلك يقول "روبنسن" صاحب كتاب روح المشاركة (The Spirit of Association) "لأننا إذا نحن عزونا الفضل الأكبر في سعادة الأمة الى ما قامت به الجمعيات الاختيارية التي انتشرت في إنجلترا منذ عهد الإنجليز السكونيين"

وبدأت هذه الجمعيات خدماتها في شكل طوائف (Guilds) وقد انحصرت هذه الخدمات في تقديم المساعدة لكل من هو في حاجة إليها ، وفي تبادل المعونة بين الناس بما يعود عليهم بالخير والسعادة ، ولا شك في أن الشعب الإنجليزي قد استفاد خلال القرون الوسطى فائدة كبيرة من قيام الجمعيات الاختيارية بتنظيم وسائل الحياة وتسهيل سبل العيش . ولا شك في أنه إلى هذه الجمعيات يرجع كثير من من الفضل في اكتساب الإنجليز تلك الاخلاق القوية التي طبعتهم بطابع خاص وميزتهم عن كثير من الشعوب .

يقول الدكتور ابراهيم بك رشاد "وعندى انهم ، أي الإنجليز تسيطروا على هذا العالم بقوة أخلاقهم أكثر من سيطرتهم بقوة عقولهم . وإذا كانت هناك قوة واحدة تكونت بفضلها هذه الاخلاق الإنجليزية فهي قوة الاشتراك الاختياري التي بعثت منذ أمد بعيد في قلوب الشعب روح التعاون لإعلاء شأنه بنفسه بعزيمة تزيل العقبات وتسهل الصعاب من غير أن تتدخل سلطة ما في شئونه"

ولم يكن طريق الجمعيات الاختيارية وما تبعها من طوائف معبدا سهلا في المرحلة الأولى من تاريخ حياتها ، ولكنه كان عرضة لكثير من التطورات المختلفة ، فقد مضت تلك الجمعيات والطوائف تسبق طريقها بين القوة مرة ، والضعف والحمول مرة أخرى ، متأثرة

في ذلك بما كان يناب الشعب نفسه من دوافع القوة والضعف . فلما كان منتصف القرن الثامن عشر أحست شعوب العالم الرغبة في تقوية العزائم وشحن الهمم ، وفكر الشعب الإنجليزي في البحث عن وسائل أخرى تساعد على تخفيف أعبائه ، وتمهد له السبيل الى حياة أرغد حالاً من حياته الماضية . وكانت الجمعيات التعاونية (Co-operative Societies) إحدى هذه الوسائل التي بنا إليها الشعب وخاصة بعد الانقلاب الصناعي والزراعي (The Industrial and Agrarian Revolution) ، فقد كان هذا الانقلاب التيار الجارف الذي غمر نوره أوروبا كلها في ذلك الوقت فبدل حالها وقلب أوضاعها وغير انظمتها ، وساعد على انتشار الأفكار الحديثة والقضاء على الفوارق بين الطبقات .

وقد حدث بعد هذا الانقلاب الصناعي الزراعي الذي بدأ في إنجلترا " بلانكشير " أن أصيبت دول العالم ومنها إنجلترا بأزمات اقتصادية شديدة زعزعت أركانها ، وهددت الأيدي العاملة بالشدّة والعسر ، وتوخت لهم بشيخ الجوع والفقر . وكانت هذه الأزمة الطاحنة نتيجة استخدام الآلات وإدارتها بالبخار ، والاستعانة برؤوس الأموال الكبيرة في الصناعة والمواصلات . وأدت هذه الحركة على الرغم من توافر سبل العيش وازدياد موارد الثروة إلى نتائج وخيمة أهمها :

( ١ ) الاستغناء عن كثير من الأيدي العاملة ، وقد هام أولئك الذين استغنى عنهم في الشوارع جائعين يبحثون عن القوت فلا يجدونه .

( ٢ ) تشييل النساء والأطفال الحديثي السن ، وقد أفضى ذلك إلى نتائج صحية وخلفية سيئة .

( ٣ ) تخفيض أجور العمال إلى حد لم يكن يكفي للحصول على القوت الضروري .

( ٤ ) تحكّم أصحاب العمل ، مما أدى بهم الى املاء شروط فيها الغم لهم والفرم على العمال الذين كانوا ياملون فوق ذلك بالقسوة والشدّة .

وكان ما أحسه العمال والأجراء من هذه المحنة وهذا الضيق سبباً دفعهم إلى التفكير في مستقبلهم ، وبعثنا بحث المصلحين على البحث عن علاج لهذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي وقع فيها أولئك المساكين .. وكان أول من فكر في ذلك " روبرت اوين " (Robert Owen)

وكان يملك في ذلك الوقت مغزلاً كبيراً في إحدى بلاد اسكتلندا اسمها نيولانارك

(New Lanark) وقد وصل في مجته إلى تقرير أمور كثيرة منها :

( ١ ) تقليل ساعات العمل .

( ٢ ) منع تشييل حديثي السن من إناث وذكور .

(٣) تعليم أطفال عماله مبادئ القراءة والكتابة والرياضة البدنية في مكاتب ليلية فتحها خصيصا لهم .

(٤) إنشاء مساكن صحية .

(٥) توزيع الأطعمة الصحية على العمال بسعر الجملة معرضا عن الربح الذي يتناوله الوسيط (التاجر) .

كان "أوين" يرجو الخير للناس جميعا . يقول الدكتور ابراهيم بك رشاد : ( ولم يقتصر "أوين" في مجهوداته على من حوله بل فكر في وضع نظام عام يعود بالخير على المجتمع الانساني ، ورأى أن البيئة التي يعيش فيها الانسان من أهم المؤثرات في تكوين مواهبه ، فإذا عمل المصلحون وأرباب الأموال والحكومة على تحسينها ومنع ذلك الضرب من التنافس الذي ييخص الناس أشياءهم ، وإحلال حسن المعونة والمساعدة مكانه ، عاش الجميع عيشة هنيئة ) .

" وللوصول الى تحقيق هذا النظام أخذ هذا المفكر العمراني والرجل العملي يعمل على إنشاء « جاليات » (Communities) زراعية صناعية تكون مصادر الثروة فيها من مزارع ومصانع وغيرها ملكا شائعا بين أفرادها ، وهذه الجالية تقوم بجمع حاجات أفرادها فتكفيهم جميع أمورهم المعاشية والتهديبية " .

غير أن هذه الحركة لم تنل التقدير الواجب وانتهت بالفشل على أثر مهاجمة رجال الدين لها ، كما أن جميع الحركات التي قامت حتى ذلك الوقت وغرضها إصلاح حالة الطبقات الفقيرة قد صادفت كثيرا من الفشل ، وقابلها كثير من الصعاب . غير أن ما اعترض طريقها من عمن ، وما أدى الى اضمحلالها ، كانا درسا للمصلحين الذين جاءوا فيما بعد ، وكانا الخطوة أو الخطوات الأولى لتكوين جمعيات تعاونية على أسس وقواعد ثابتة . . وقد ظهر في فرنسا في ذلك الوقت أو بعده بقليل الفيلسوف الاشتراكي " شارل فورييه " (Charles Fourier) فكان من أكبر دعاة التعاون في الاستهلاك (التوريد والتوزيع) . ثم ظهر في ألمانيا «فردريك ريفيزن» (Frédrick Raiffeisen) و«شلس دلتش» (Schulze Delitzsch) وكانا من أكبر دعاة التعاون للاقتراض والتسليف .

كانت كل هذه الجهود محاولات وتجارب ، ثم كانت جمعية «روتشديل» التي قامت على أكتاف ثمانية وعشرين رائدا ، أولى الجمعيات الاستهلاكية المنتظمة وعنها أخذت الجمعيات الأخرى وكانت المبادئ السبعة التي سارت عليها تلك الجمعية دستورا للجمعيات التعاونية في جميع أنحاء العالم .

يقول الاستاذ عبد اللطيف عامر في محاضرة ألقاها بمدرسة الخدمة الاجتماعية " كثر تأسيس الجمعيات التعاونية في هذه الفترة ومنها ما كان يسمى « حوانيت الاتحاد » الا أن هذه المحاولات جميعها لم يتوفر لها النجاح الكافي الى أن كانت التجربة الخالدة في بلدة روتشديل القريبة من مانشستر ، فكانت هذه الجمعية التعاونية الاستملاكية الأولى يشار إليها على الدوام كلما ذكر التعاون وجمعياته ، أو استعرض تاريخ الحركة التعاونية ونظامها ، أو أشيد بمبادئ تلك الحركة وأثرها الاقتصادي والاجتماعي . وقد قامت هذه الجمعية في سنة ١٨٤٤ فكانت الحجر الأول لهذا البناء التعاوني الضخم الذي نشاهده اليوم ونلمس آثاره الطيبة في سائر أنحاء العالم " ..

وتنقسم الجمعيات التعاونية الموجودة في أنحاء العالم الآن الى جمعيات زراعية ومنزلية وصناعية وغيرها ، ولكل منها ظروف خاصة ساعدت على تقدمها ونهوضها ، وادخال تحسينات في نظامها ، ونرجو أن تتاح لنا الفرصة لتحديث عن كل واحدة منها على حدة .